حبائل الحب

وضع السركونان دو بل رواية بديعة خلاصتها ان ضابطاً من ضباط الجيش البريطاني قتل فتاة اسمها انا غارنير واعترف بجريمته في نقطة البوليس ولكنهُ قال انهُ لا يدافع عن نفسهِ ويبيّن الحامل لهُ على فعلتهِ الاَّ امام محكمة الجنايات . وشاع حينئذٍ انهُ قتلها غيرة فلم ينفِ هذه الاشاعة ولا اثبتها بل قال انهُ سيثبت جلية امرهِ امام المحكمة

ولما عقدت محكمة الجنايات وجيء بهِ اليها لم يرض ان يدافع عنهُ احد بل تولَّى الدفاع بنفسهِ فسمع القاضي والمحلفون اقوال النائب العمومي وشهادات الشهود التي تثبت الجريمة على القاتل وهو لا يبدي اعتراضاً ولما جاء دورهُ للدفاع نهض واخرج ورقة من جيبهِ وتلاها بصوت رزين قال ما خلاصتهُ

لقد كان في الامكان ايها السادة المحلفون ان آتي بامهر المحامين للدفاع عني لا لانني غنيٌّ استطيع ان ادفع اجورهم بل لان اخواني الضباط عرضوا عليَّ ان يدفعوا هم اجورهم كرماً منهم . ولقد فضلت ان ادافع عن نفسي بنفسي لا لانني معتزٌّ بمقدرتي حاسب اني كفوء لذلك بل لانني معتقد ان قضيتي واضحة جداً وانني اذا بسطتها لديكم بالبساطة التامَّة اقنعتكم ببراءتي اكثر مما لو تولَّى الدفاع عني امهر المحامين . ولقد سمحت لي المحكمة كرماً منها ان اكتب دفاعي واتلوهُ على مسامعكم لكي اتمكن من ايراد الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان

تتذكرون انني لم اشأ ان ادافع عن نفسي وقت التحقيق امام البوليس منذ شهرين بل قلت انني لا استطيع ان افعل ذلك الاَّ بعد ايام وقد مضت هذه الايام وصرت قادراً على الدفاع وساوضح ذلك الآن بالتفصيل واخبركم ماذا فعلت ولماذا فعلتهُ فاذا رأيتم بعد ذلك انني مذنب ويجب عقابي احتملت العقاب الذي تحكمون بهِ عليَّ صامتاً

مضى عليَّ في سلك الجيش ١٥ سنة وانا الآن في رتبة كبتن (يوزباشي) وقد حاربت في جنوب افريقية وذكرني رؤسائي بالمدح . ولما نشبت الحرب الحاضرة عُينت لتسليم اورطة نظمت حديثاً في ردتشرش فنزلت في بيت المستر مريفيلد والتقيت هناك بمس انا غارنير

وليس من اللياقة ان اتولى وصف هذه الفتاة في هذا الوقت وفي هذه الاحوال ولكن لا بد لي من ذكر بعض اوصافها لارتباط ذلك بقضيتي اشدَّ الارتباط فاقول انها كانت في الخامسة والعشرين من عمرها طويلة القامة جميلة المنظر جداً فاحببتها حالما رأيتها وصار همي الوحيد ان اقترن بها ولم يكن امر الزواج يخطر ببالي قبلاً ولكن رؤية هذه الفتاة غيَّرت كل

انكاري وصرت احسب ان سعادتي متوقفة على قبولها الاقتران بي . ولكنني اقول انصافاً لنفسي انني بقيت احسب شرفي كجندي ورجل اعلى واسمى من حقوق المحبة . ومع كون اني فعلت فعلة تنقض هذا القول ولكن كل ما فعلتهُ بعد ذلك كان لاجل التكفير عن تلك الفعلة

واتضح لي ان الفتاة تميل اليَّ كما مالت اليها وكانت قد جاءت الى ذلك البيت من مونبلييه في جنوب فرنسا منذ سنة من الزمان لانها قرأت في الجرائد اعلاناً يطلب به صاحبهُ معلمة فرنسوية لاولادهِ فجاءت ولم تطلب اجرة بل رضيت بالاقامة في البيت ضيفةً فيهِ . وفهمت منها انها تحب الانكليز و بلادهم وتودُّ ان تكون كل اقامتها فيها ثم لما نشبت الحرب زاد كرهها للالمان وحبها للانكليز حلفاء بلادها فرنسا . واخبرتني ان جدها قتل في حرب السبعين وان لها اخوين وهما في الجيش الفرنسوي . ولما كانت تتكلم عن الفظائع التي ارتكبها الالمان في البلجيك كان صوتها يرتجف من شدة الغيظ . وكثيراً ما رأيتها تقبل سيفي ومسدسي لانها كانت ترجو ان استعملها في قتل العدوّ . ومن هنا ترون انهُ كان لتعلقي بها اكبر سوغ وكنت أود ان اقترن بها حالاً اما هي فكانت تقول ان ذلك لا يمكن ان يتم الاَّ بعد الحرب والوقوف على ارادة اهلها حسبما تقتضيهِ شروط اللياقة في فرنسا

وكانت من امهر النساء في ركوب الموتوسيكل وقد جرت عادتها ان تركب هذه الآلة وتخرج وحدها وتغيب ساعات متوالية ولا تأذن لي في مرافقتها . وكنت اراها في بعض الاحيان كانها مقرعة في قالب اللطف والدعة وفي احيان اخرى تجتنبني لغير سبب واذا الححت عليها طالبةً ان تفصح لي عن السبب تنظر اليَّ شزراً ثم تفعل شيئاً يسرني فيزول ما خامر نفسي من الغيظ

وكانت اشغالي لا تسمح لي بمشاهدتها الاَّ في المساء لكنها كانت تقيم احياناً في الغرفة التي تعلم فيها الاولاد وتقول لي صريحاً انها مشغولة ولا تستطيع ان تراني واذا رأت بعد ذلك اني اغتظت منها تضحك وتعتذر عما فعلت مبدية الخجل والدلال فيزيد افتتاني بها

ولا انكر اني كنت غيوراً عليها بل شديد الغيرة . ثم وجدت انها تعرف كثيرين من الضباط وقد لقدم انها كانت تركب الموتوسيكل وتغيب ساعات متوالية فداخلتني الظنون واشتدت الغيرة بي ولا سيما حينما كنت اسألها عن ماضي حياتها فاجدها مرًّا غامضاً وكثيراً ما كان عقلي يحذرني منها فيقوم قلبي و يتغلَّب عليهِ ولا سيما وانها كانت فتَّانة تبسم في وجهي فتنسيني كل الشكوك والظنون او تعتذر عما فرط منها اعتذاراً محكمة مقبولة

ورأيت مرةً على مكتبها صورة شاب وتحتها اسم "ڤاردين" فسألتها اسم صاحب الصورة ويظهر من تجدُّد زواياها انها تحملها في جيبها فسألتها عن صاحب الصورة فقالت انها لا تعرفهُ

ولا رأته مطلقاً فاغتاظت منها ورفعت صوتي فجاءت صاحبة البيت ولامتني على ما بدا مني من الغيرة والحدة . وكانت الفتاة قائمة في منظرها ردها فغادرتني سورة الغيظ حالاً لكن بقي اسم هذا الرجل في ذهني واجتهدت لاعرف من هو بكل الوسائل فلم استطع

ثم عُينت في وزارة الحربية فاضطررت ان اقيم في لندن وكانت اشغالي هناك فوق رأسي تستغرق كل وقتي واخيراً نلت اجازة بضعة ايام فاسرعت الى ردتشرش حيث فاتنتي لاراها وكانت ردتشرش على خمسة اميال من المحطة فوجدتها في المحطة واقفة في انتظاري . ولا استطيع ان اصف لكم ايها السادة كيف يضل الانسان وتظلم بصيرته في الحالة التي كنت فيها فان استطعتم ان تتصوروا ذلك من تلقاء انفسكم فهو والاَّ فلا يمكنني ان اجعلكم ترون غير ما سأذكره لكم من واقعة الحال فاني ارتكبت اعظم ذنب ارتكبته في حياتي وانا سائر مع تلك الفتاة من المحطة الى البيت الذي كانت فيه وذلك اني اطلعتها على سر مهم جداً كان يمكن ان يغير مجرى هذه الحرب وتخسر بسبب افشائه الوفاً كثيرة من الرجال . وقد فعلت ذلك على غير انتباه وقبل ان اعرف انها ادركت المراد . فاني رأيتها متألمة متنغصة تكاد تبكي لان الالمان كانوا واقفين امام جنود الحلفاء كسد من حديد يمنعونهم من الحركة . فقلت لها ان الالمان مهاجمون ونحن الواقفون امامهم كسد من حديد يمنعهم من التقدم . فقالت « ولكن ايقون في فرنسا وفي بلجكا ولا نستطيع ان نطردهم منها بل نكتفي بالوقوف امامهم راضين بامتلاكهم عشر ولايات من فرنسا . اواه يا حبيبي اواه بالله عليك قل لي كلمة تزيل كآبتي وتنعش فؤادي قل لي كلمة تلقي في قلبي شعاعة من الامل ما اقسى قلوب الانكليز وما اطول روحهم واكثر جلدهم اما نحن الفرنسويين فلسنا مثلكم نحن شديدو التأثر وهذه الحالة موت اليم . قل لي بحقك الله لم ينقطع الامل ولم يزل في جعبة الرجاء منزع . ولكن كيف اسألك هذا السؤال وانت موظف صغير لا تعرف اسرار القواد العظام »

فقلت لها اني اعرف اكثر مما تظنين فلا تقلقي لانه لا بدَّ لنا من اتخاذ خطة الهجوم قريباً

فقالت قريباً يعني بعد سنة او سنتين

فقلت كلاَّ ليس بعد سنتين ولا بعد سنة

فقالت ايمكننا ان ننتظر شهراً ونحن على هذه الحال . فقلت ولا شهراً

فشدت يديها على يدي وقالت اواه يا حبيبي لقد انعشت فؤادي ولكن ما اصعب الانتظار . ان انتظار اسبوع واحد يقتلني

فقلت وقد لا يكون اسبوعاً

فقالت قل لي شيئاً واحداً هل يكون الهجوم من جنودنا البواسل اهم من جنودكم الاشاوس · ممن ينال مجد الهجوم

فقلت الفريقان

فقالت لا فض فوك اذن يهجم الفريقان معاً حيث يشعل احدهما بالآخر

فقلت كلاً لا يهجمان معاً

فقالت ولكنني فهمت منك ان الهجوم يكون مزدوجاً ولكن النساء لا يفهمن هذه الامور

فقلت لنفرض ان الفرنسويين يهجمون عند ڤردون والانكليز عند ايبر فيكون هجومهما معاً ولو كان بينهما مئات من الاميال

فصفقت بيديها وقالت الآن فهمت انهم يهجمون من طرفي الخط في وقت واحد حتى لا يعرف الاعداء الى اي جهة يرسلون المدد

فقلت لها اصبت هذا هو المراد وهو هجوم فعلي في ڤردون وتظاهر بالهجوم عند ايبر

ولم أكد التفظ بهذه الكلمات حتى اعترتني قشعريرة ولا ازال اتذكر كيف تحيت عنها حينئذٍ ونظرت في وجهها وقلت لها لقد بحت لك بما لا يجوز لي ان ابوح به لاحد فهل تعديني بالكتمان التام

فاستاءت من ارتيابي بها وقالت « اني اقطع لساني ولا افوه بكلمة لخلرق مما قلتهُ لي » فاطمأنَّ بالي وحسبت ان لا داعي للخوف مطلقاً ثم نسيت ذلك بما وجدتهُ من دواعي السرور

وكنتُ مكلفاً اداء رسالة الى الكولونل رول فذهبت اليهِ وغبت ساعتين · ولما رجعت سألت عنها فقالت لي الخادم انها دخلت غرفتها بعد ان قالت للسائس ان يعدَّ لها الموتوسيكل ويضعهُ امام الباب · فاستغربت كيف تفارقني وزيارتي لها قصيرة جداً ودخلت الغرفة التي تعلم فيها الاولاد وجلست امام مكتبها الذي تكتب عليهِ فوقع نظري على الورق الشاف الذي امامها فاذا عليهِ بحروف مقلوبة اسم ڤاردين وهو نفس الاسم الذي على الصورة الفوتوغرافية وكان جزءاً من عنوان ورأيت في اسفل العنوان حروفاً تدلُّ على فرع من فروع البوسطة بلندن فعلمت انها تكاتب ذلك الرجل وانها كتبت اليهِ في ذلك اليوم مع انها قالت لي انها لا تعرفهُ ولا رأتهُ · فثار ثائر الغيظ في رأسي حتى فقدت صوابي وامسكت بدرج مكتبها وكان مقفلاً فكسرتهُ ولو كان من الحديد لكسرتهُ واذا بالمكتوب الذي كتبتهُ هو الى هذا الرجل لانهُ بدوء باسمهِ فاجلتُ نظري فيهِ من اولهِ الى آخرهِ قبل ان اقرأهُ فوجدت فيهِ كلمة ايبر فاعترتني رعشة وقرأت الكتاب كلهُ وهذه ترجمتهُ

عزيزي المسيو فاردين

اخبرني سترنجر انهُ اطلعك على اخبار تشلسفورد وكاشستر فلم اهتم بالكتابة اليك عنها. وقد نقلوا لواء الجيش المتطوع والمدافع الكبيرة الى الساحل عند كروس لكي يراقبوهُ على كيفية النزول الى السفن

اما اهم اخباري فمستقاة من وزارة الحربية رأساً فانهُ في اقل من اسبوع سيأخذ الفرنسويون خطة الهجوم الشديد في فردون و يتظاهر الانكليز بالهجوم الكبير في ايبر فيجب ان ترسل رسولاً هولنديًا مخصوصاً الى فون ستورمر باول سفينة وارجو ان اقف الليلة على يوم الهجوم بالضبط التام وسائر التفاصيل ولكن يجب ان لا تؤخر ارسال الخبر الذي اخبرتك به

ولم اجسر ان ارسل هذا الكتاب بالبريد من هنا ولذلك سآخذهُ بنفسي الى كاوشستر فيضعهُ سترنجر مع تقاريره التي تسلم اليك يداً ليد صوتيا هفنر

لم اكد اتم قراءة هذا المكتوب حتى شعرت كأنَّ صاعقة نزلت على رأسي . فبهتُّ ودهشت وتولاني غيظ شديد لا استطيع التعبير عنهُ اذ رأيت ان هذه الفتاة التي بحت لها باعظم سر في جاسوسية المانية . بحت لها بسر من وراء الاباحة به قتل الوف ومئات الالوف من اهل وطني وحلفائهم . وبينما انا جالس مذهول سمعت صوت وقع قدميها فدخلت ونظرت اليَّ ومكتوبها في يدي ودرج مكتبتها مكسور فقالت كيف تجاسرت ان تكسر مكتبتي وتسرق مكتوبي

فلم اجبها بل احدقتُ بنظري اليها وانا افكر في ما يجب ان افعل . ثم هجمتْ عليَّ كاللبوة وحاولت خطف المكتوب من يدي فامسكت يدها ودفعتها الى مقعد امامي وقرعت الجرس وطلبت من الخادم ان تنادي صاحب البيت . وكان رجلاً فاضلاً عامل هذه الفتاة كأنها ابنتهُ فاخبرتهُ انها من جواسيس الالمان ولم استطع ان اريهُ المكتوب فذهل من هذا الخبر وقال لي ماذا تشير علينا ان نفعل فقلت لا بدَّ من القبض عليها حالاً ومنع اتصالها بغيرها قبل القبض عليها لان لها اعواناً في هذه القرية فهل تستطيع ان تتولى حفظها الى ان اخبر قائد الجيش هنا وتحضر الامر بالقبض عليها

فقال نعم يمكننا ان نضعها في غرفتها ونقفل بابها

فقالت هي ابقوني هنا وانا اعدكم باني لا ابرح مكاني ولكن لا تنسَ يا كبتن قولي انك كثيراً ما تتعجل وتندم فاذا لبضم عليَّ واعتقلتموني وشاع في طول البلاد وعرضها انك

اطلعتني على اسرار الحكومة التي اؤتمنت عليها خسرت باصاح خسارة لا تعوّض

فقلت لصاحب البيت ان يضعها في غرفتها و يقفل الباب فقالت لا مانع ومشت معنا ولم نكد نخرج حتى اقفلت منا وركضت الى الموتوسيكل فادركناها وقبضنا عليها فجعلت تعض وتخمش كالقطة ولقينا صعوبة شديدة في جرها الى غرفتها فادخلناها اليها واقفلنا بابها . وقال لي صاحب البيت حينئذٍ ان غرفتها عالية تعلو عن ارض الحديقة التي تحتها ٤٢ قدماً وانهُ سيبقى امام بابها الى ان ارجع

فقلت لهُ خذ هذا المسدس وكن على حذر لاننا لا نعلم من لها من الاعوان في هذا المكان ووضعت رصاصتين في المسدس فقال ان عصاهُ كافية والبستاني قريب . فاسرعت انا لجلب الامر بالقبض عليها فوجدت ان لا بدَّ من معاملات قانونية كثيرة يقتضي العمل بها كاتبنا ساعات فعملت بعضها وعدت الى المنزل مسرعاً وكانت الشمس قد غابت وكاد الليل يرخي سدولهُ فلا يرى المرء امامهُ الى اكثر من ثلاثين خطوة ولم اكد اسير طويلاً حتى سمعت صوت موتوسيكل مقبلاً نحوي بسرعة فائقة فحدث من الطريق قليلاً لكي لا يصدمني واذا انا بهذه الفتاة وهي حاسرة الراس وشعرها تعبث بهِ الريح فمرت امامي كالسهم فرأيت في لحظة كل ما يمكن ان يحدث من مخاتها ونظرت الخطر الذي يحدق بنا وبحلفائنا من معرفة الالمان للسر الذي افشيتهُ لها . وفي اللحظة التالية كان المسدس في يدي ورصاصتان خارجتان منهُ فسمعت صرخة وصرت آلة وقعت ثم سكوت تام . ولما وصلت الى الآلة وجدتها في الخندق الى جانب الطريق وتلك الجاسوسة الخائنة مطروحة لا حراك بها . وبينما انا واقف مذهولاً وصل صاحب المنزل يلهث واخبرني انها نزلت من شباك غرفتها متمسكة باغصان الليلاب المتعرش عليها واسرعت الى الموتوسيكل وركبتهُ قبل استطاع ان يلحق بها . ووصل حينئذٍ الجنود الذين كانوا آتين للقبض عليها فقبضوا عليَّ

وقد طُلب مني وقت التحقيق ان اشرح واقعة الحال فلم استطع لثلاثة اشهر سر المجوم قبل الوعد والآن عرفتم قصتي كما هي وانا معترف بذنبي الاكبر وهو افشائي سرًّا كان الواجب عليَّ ان لا افشيهُ لاحد ولكنكم لا تحاكمونني الآن على هذا الجرم بل على جرم آخر وهو قتلي لهذه الجاسوسة اما انا فكنت اعد نفسي مجرمًا اكبر جرم لو لم اقتلها

والآن اترك امري في يدكم فاذا برأتموني فاني ارجو ان اكفر عن ذنبي الاكبر حيث يصح التكفير عنهُ وعسى ان القي منيتي هناك فاستريح من ترتيب ضميري واذا لم تبرئوني فاني ارحب بالعقاب الذي تعاقبوني بهِ مهما كان